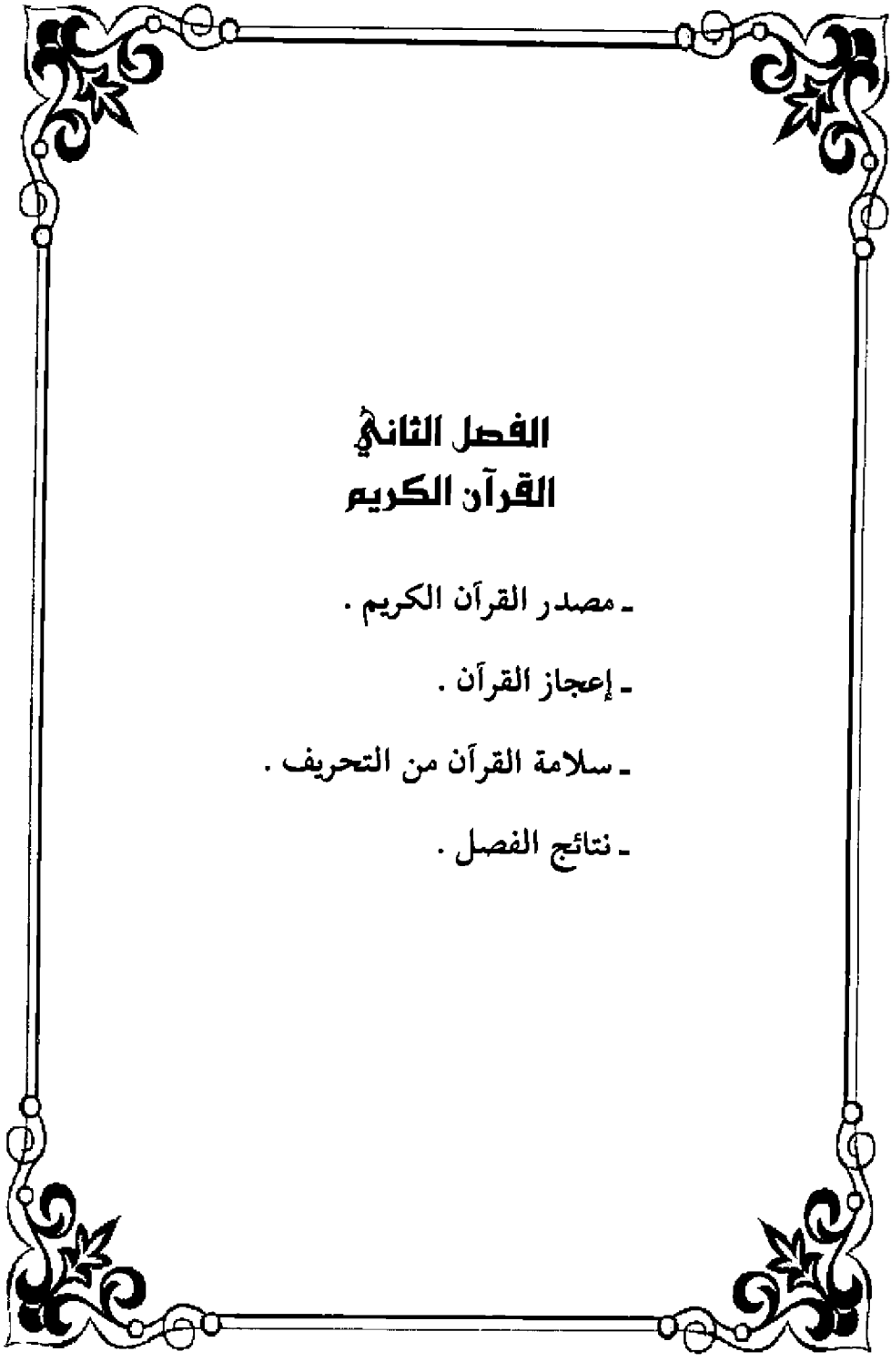

الفصل الثاني
القرآن الكريم

- مصدر القرآن الكريم .
- إعجاز القرآن .
- سلامة القرآن من التحريف .
- نتائج الفصل .

يحدد «الحليمي» عناصر البحث في هذا الموضوع في ثلاث شعب:

1 ـ الإيمان بأن القرآن كلام الله ـ تعالى ـ لا من وضع «محمد» ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا من وضع «جبريل» عليه السلام.

2 ـ الإيمان بأنه معجز النظم، لو اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يقدرون عليه.

3 ـ اعتقاد أن جميع القرآن الذي توفي النبي ـ صلى الله عليه وسلم عنه ـ هو هذا الذي في مصاحف المسلمين لم يزد فيه حرف، ولم ينقص منه حرف[1].

وأعتقد أن توضيح هذه الشعب كفيل بإلقاء الضوء على جوانب هذا الموضوع والإلمام بعناصره الرئيسة:

القرآن في الأصل مصدر على وزن فَعْلان، ثم صار علماً شخصياً مدلوله تلك الآيات المنزلة المتميزة بخصائصها العليا من أول الفاتحة إلى آخر سورة الناس[2]. ولذا صار من المتعذر تعريف القرآن تعريفاً منطقياً لأن ذلك لا يكون إلا للكليات ذات الأجناس والفصول والخواص.

وما ذكره العلماء من تعريف للقرآن الكريم، إنما هو ضابط مميز له، وليس تعريفاً حقيقياً لأن قولهم: القرآن كلام الله المعجز، المنزل على «محمد» ـ صلى الله عليه وسلم ـ المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، ليس تعريفاً اصطلاحياً، وإلا لاكتفى ببعض هذه الصفات، وكان جامعاً مانعاً.

ولكن الغرض هو ذكر المقاصد الكبرى التي امتاز بها القرآن، فضلاً عن التوضيح والبيان رفعاً للَّبس والاشتباه.

---

(1) انظر: المنهاج في شعب الإيمان، 1/ 317.

(2) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، 1/ 8 وما بعدها. واللآلئ الحسان في علوم القرآن، ص 9 وما بعدها. والنبأ العظيم، الدكتور عبدالله دراز، ص 12 وما بعدها. الطبعة التاسعة 1413هـ ـ 1993م. دار القلم للنشر والتوزيع. الكويت.

وعلماء الكلام يطلقون كلام الله على الكلام النفسي، ويقررون أنه قديم غير مخلوق، ومن ثم يجب تنزهه عن الحوادث والأعراض، باعتباره صفة من صفات الباري عز وجل.

والأصوليون والفقهاء يهتمون بإطلاق القرآن على الكلام اللفظي لأن غرضهم الاستدلال على الأحكام، وهو لا يكون إلا بالألفاظ.

وكذلك علماء العربية لا يهتمون إلا بالكلام اللفظي، لأن موضوعهم البحث والكشف عن الإعجاز القرآني، وهو ينطلق من الألفاظ الدالة على المعاني.

أولاً: مصدر القرآن الكريم:

شهد التاريخ المتواتر بمجيء هذا الكتاب على لسان رجل عربي أمي، ولد بـ «مكة» في القرن السادس للميلاد، عام الفيل (571م) اسمه «محمد بن عبدالله بن عبد المطلب» ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهذا القدر لا يختلف فيه اثنان، وهي شهادة لا تدانيها شهادة لكتاب غيره ظهر على وجه الأرض.

ولكن من أين جاء بهذا الكتاب؟ أهو من عند نفسه؟ أم هو من عند غيره؟ ومن هو ذلك الغير؟ والقرآن صريح في أنه لا صنعة «لمحمد» فيه، وإنما هو منزل من عند الله بلفظه ومعناه، ولم يكن «لمحمد» ـ صلى الله عليه وسلم ـ من دور سوى التلقي، ثم الوعي والحفظ، والتبليغ والبيان، ثم التطبيق والتنفيذ.

أما ابتكار معانيه، وصياغة مبانيه فما هو منها بسبيل، وقد جاء القرآن صريحاً بهذا المعنى: ﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِن رَّبِّي ۚ هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[1]. فهل يبقى بعد هذا الإقرار من يحتاج إلى بينة أخرى تدل على أن القرآن ليس من عند «محمد» ـ صلى الله عليه وسلم ـ؟! فأي مصلحة لعاقل يدعي لنفسه الزعامة، ويتحدى الناس بالمعجزات لتأييد تلك الدعوة، ثم ينسب بضاعته لغيره؟ «إن الذي نعرفه عند كثير من الأدباء هو السطو على آثار غيرهم، لينسبوها إلى أنفسهم، ويخرجوا على قومهم في زينة من تلك الأثواب المستعارة. أما وأن ينسب أحد لغيره أنفس آثار عقله، وأغلى ما تجود به قريحته، فهذا ما لم يلده الدهر بعد»[2].

أضف إلى ذلك أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانت تنزل به النوازل الجسام التي كانت تتطلب منه التصرف وبسرعة للخروج من تلك الواقعة. ولكنه كانت

---

(1) الآية 203 من سورة الأعراف.

(2) النبأ العظيم، الدكتور محمد عبدالله دراز. ص 22. مرجع سابق.

تمضي به الليالي والأيام، ولا يجد في شأنها قرآناً يقرؤه على الناس، ولنأخذ لذلك مثالاً: «حديث الإفك» الذي حاول أصحابه النيل به من عرضه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأحسب أني لست في حاجة إلى بيان ما يمثله هذا الجانب عند العرب ـ حتى قبل الإسلام ـ لدرجة أنهم جعلوا وأد البنات شريعة بينهم، خوفاً من أن تلوث تلك المولودة شرف العائلة والقبيلة.

ألم يرجف المنافقون بحديث الإفك عن زوجه «عائشة» ـ رضي الله عنها ـ؟ وأبطأ الوحي، وهو لا يستطيع إلا أن يقول ـ بكل تحفظ واحتراس ـ: إني لا أعلم عنها إلا خيراً. بعد أن بذل قصارى جهده في التحري، وسؤال المحيطين، وظل شهراً كاملاً يعاني تلك الأزمة الحادة. ثم لم يزد أن قال لها آخر الأمر: يا «عائشة»، أما إنه قد بلغني كذا وكذا، فإن كنت قد ألممت بذنب فاستغفري الله.

على أنه لم يغادر مكانه ـ بعد أن قال هذه الكلمات ـ حتى نزل القرآن معلناً براءتها، ومصدراً حكماً بشرفها وطهارتها.

فماذا كان يمنعه، لو أن أمر القرآن بيده أن يتقول مثل هذه الكلمات الحاسمة، ليحمي بها عرضه، ويذود بها عن شرفه، ولكنه ما كان ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. كما أن القرآن كثيراً ما ينزل معاتباً للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليس على خطأ في الاجتهاد، ولكنه يستبدل الصالح بالأصلح.

ونضرب لذلك مثلاً يوضح ما نحن بصدده: بعد غزوة «بدر الكبرى» استشار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعض أصحابه في أمر الأسرى. فقال «أبو بكر» ـ رضي الله عنه ـ: هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، قد أعطاك الله الظفر بهم، ونصرك عليهم. أرى أن تستبقيهم، وتأخذ الفداء منهم، فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار، وعسى الله أن يهديهم بك فيكونوا عضداً لنا.

أما «عمر» ـ رضي الله عنه ـ فقال: يا رسول الله قد كذبوك وأخرجوك وقاتلوك، ما أرى ما رأى «أبو بكر» فاضرب أعناقهم.

لكن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخذ برأي «أبي بكر» وقال: لا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضرب عنق[1]. فأنزل الله ـ تعالى ـ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[2].

فبكى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وبكى «أبو بكر» وقال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ: إن كاد ليمسنا في خلاف «ابن الخطاب» عذاب عظيم.

إن المتتبع لآيات العتاب يرى بكل وضوح أنها تنحصر في أمر واحد، وهو أنه عليه الصلاة والسلام كان إذا اجتهد في أمرين اختار أقربهما إلى رحمة أهله، وهداية قومه، وتأليف خصمه، وأبعدهما عن الغلظة والجفاء[3].

لم يكن بين يديه نص فخالفه كفاحاً، أو جاوزه خطأً ونسياناً، بل كل ذنبه أنه مجتهد بذل وسعه في النظر، ورأى نفسه مخيراً فاختار، على أن الذي اختاره كان هو خير مما يختاره ذو حكمة بشرية. وإنما نبهه القرآن إلى ما هو أرجح في ميزان الحكمة الإلهية. فهل في ذلك ذنب يستوجب عند العقل هذا التأنيب والتثريب؟ أم هو مقام الربوبية ومقام العبودية، وسنة العروج بالحبيب في معارج التعليم والتأديب؟

وإذا لم تكن نفس «محمد» مصدراً لهذا القرآن، فما هو المصدر الحقيقي لهذا الذكر الحكيم؟ ولا يمكن أن يكون مصدراً بشرياً آخر غير «محمد» ـ صلى الله عليه وسلم ـ لافتقاده في تلك البيئة التي أوضح ما يميزها عن البيئات الأخرى هو الأمية.

وبإلقاء نظرة على تلك الظاهرة العجيبة، التي كانت تبدو على الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في كل وقت حين نزول القرآن عليه، حيث كان يحمر وجهه، وتأخذه البرحاء، حتى يتفصد جبينه عرقاً، ثم لا يلبث أن تزول عنه تلك الشدة، فإذا

---

(1) انظر: محمد رسول الله. محمد رشيد رضا. ص 173 ـ 174. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان (1395هـ ـ 1975م).

(2) الآية 67 من سورة الأنفال.

(3) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز. ص 26.

هو يتلو قرآناً جديداً وذكراً محدثاً. وهذه الظاهرة لا يمكن أن تكون متكلفة، ولا مصطنعة، وإلا لكانت طوع إرادته ومشيئته، ولأمكنه أن يأتي بقرآن جديد كلما دعت الحاجة إليه. ولكن أنى له ذلك؟ وقد رأينا أنه كان كثيراً ما يلتمسه في أشد أوقات المحنة، وكان لا يظفر به إلا حين يشاء الله.

فهي إذن قوة خارجية، لأنها لا تتصل بالنفس المحمدية إلا حيناً بعد حين، وهي قوة أعلى من قوته، لأنها تحدث في بدنه ونفسه تلك الآثار العظيمة ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ ﴾[1]. وهي قوة معصومة، فلا تأمر إلا بالرشد، ولا تنهى إلا عن الغي، فلا علاقة لها بالقوى الشريرة، كالجن والشياطين، إذ ما للجن وعلم الغيب، ﴿ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴾[2]. وما للشياطين وخبر السماء، وهي محفوظة من كل شيطان مارد. ﴿ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ۝ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ۝ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ﴾[3].

فماذا عسى أن تكون هذه القوة غير قوة ملك كريم؟ ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ ﴾[4].

وهذه القوة لا توحي إلا بالحق، ولا تأمر إلا بالخير، لأنها مبرأة من الشهوات والشرور، فلا يشغلها شيء عن عبادة الله ـ تعالى ـ وتنفيذ أوامره ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾[5].

ولكن هل يمكن أن يكون القرآن من عند الملك؟ وتكون نسبته إلى الله على معنى أنه تعالى: هو الذي أمر «جبريل» ـ عليه السلام ـ بإلقائه إلى نبيه، خاصة وأن الملائكة لم يرد لها ذكر في العجز عن الإتيان بمثل القرآن. بل إن ظواهر بعض الآيات قد يفهم منها أن القرآن كلام «جبريل» من مثل قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى

---

(1) الآيتان 5، 6 من سورة النجم.

(2) الآية 14 من سورة سبأ.

(3) الآيات 210 ـ 212 من سورة الشعراء.

(4) الآيات 193 ـ 195 من سورة الشعراء.

(5) الآية 6 من سورة التحريم.

قُوَّةٍ عِندَ ذِي ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾[1]. وقوله: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ۝ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾[2].

أضف إلى ذلك أن للملائكة قدرة فوق قدرة البشر، كما حكى لنا القرآن في قصة تولية «طالوت» الملك على بني إسرائيل، فعندما قالوا: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ﴾[3]. قال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾[4].

ذكر «الحليمي»[5] مضمون هذه الاعتراضات جميعاً وأجاب عليها بقوله:

1 ـ إن المراد بقول الرسول، هو أنه قول تلقاه عن رسول كريم، أو نزل به عليه رسول كريم، لأن الله يقول في آية أخرى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾[6]. فأثبت أن القرآن كلامه، ولا يجوز أن يكون كلامه وكلام جبريل معاً. وأيضاً فإن الله ـ تعالى ـ جعل القرآن معجزة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[7]. فلو كان من وضع «جبريل» لم يكن معجزاً، لأن المعجز ما لا يقدر عليه إلا الله.

2 ـ إن الله لم يتحد الملائكة بالقرآن، لأن الرسالة المحمدية للإنس والجن، فوقع التحدي للفريقين، أما الملائكة فلما لم تخاطب برسالة «محمد» ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يكن القرآن حجة عليهم.

---

(1) الآيتان 19، 20 من سورة التكوير.

(2) الآيات 40 ـ 42 من سورة الحاقة.

(3) الآية 247 من سورة البقرة.

(4) الآية 248 من سورة البقرة.

(5) انظر: المنهاج في شعب الإيمان 1/ 317 ـ 320.

(6) الآية 6 من سورة التوبة.

(7) الآية 88 من سورة الإسراء.

و«الحليمي» ـ رحمه الله ـ يرى بأن القرآن معجز أيضاً للملائكة، إذ فعل المعجز من خواص الألوهية التي لا يشاركه فيه غيره، ومن ثم كان وجودها دليلاً على وجود موجدها وهو الله ـ تعالى ـ.

3 ـ أما قدرة الملائكة على نقل «التابوت» وقلب المدائن، ونحوها فليس من جنس تأليف القرآن في شيء، لأن ذلك راجع إلى قصور في قوى البشر، فإذا زادتْ قوة «الملك» على قوة الآدمي أضعافاً مضاعفة زاد عمله بقدر هذه القوة.

أما نظمُ القرآن فهو مباين لنظم البشر، فلا يهتدى إلى وجهه فيحتذى ويتمثل، فهو كتركيب الجواهر لتصير أجساماً، وقلب الأعيان... إلى غير ذلك من الأعمال التي هي من اختصاص الرب ـ سبحانه وتعالى ـ وعليه فإن القرآن هو كلام الله، وهو معجز للمخلوقات جميعاً.

ثانياً: إعجاز القرآن:

تعرضنا في الصفحات الماضية إلى إلقاء بعض الضوء على الطريق الذي جاء منه القرآن، ووصلنا إلى نتيجة فرضتها علينا دراسة الظروف العامة والخاصة التي ظهر فيها القرآن، وهي أن كل الشواهد والأدلة ناطقة بأن هذا القرآن ليس له على وجه البسيطة أب ننسبه إليه من دون الله ـ تعالى ـ، لأنه لا يمكن إلا أن يكون معجزاً للخلق أجمعين. سواء من ناحية أسلوبه، أم من ناحية علومه ومعارفه، أم من ناحية الأثر الذي أحدثه في العالم، وغيَّرَ به وجه التاريخ.

إن هذا الكتاب الكريم يأبى بطبيعته أن يكون من صنع البشر، وينادي بلسان حاله أنه رسالة القضاء والقدر، حتى إنه لو وجد ملقى في صحراء لأيقن الناظر فيه أن ليس منبعه ومنبته من هذه الأرض، وإنما كان من أفق السماء مطلعه ومهبطه[1].

وقد بحث العلماء قديماً وحديثاً في هذا الموضوع، وسلكوا طرقاً مختلفة توصل في النهاية إلى غاية واحدة: وهي أن القرآن وحي إلهي، ومنهج رباني، ارتضاه الله لهذه الأمة لتسعد به في الدارين.

هذا وقد اهتم العلماء بهذا الموضوع اهتماماً كبيراً، وذلك لما له من فائدة كبيرة تعود على المؤمنين بالدين الإلهي، لأنه متى ثبت إعجاز القرآن، ثبت أنه ليس من عند «محمد» ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأنه كلام الله وحده، وثبتت نبوة «محمد بن عبدالله» بل ثبتت الأديان السماوية جميعاً، والكتب الإلهية أيضاً، لأن القرآن هو الشاهد على صدقها.

---

(1) انظر: النبأ العظيم، الدكتور محمد عبدالله دراز. ص 76 ـ 77. مرجع سابق.

والباحثون في هذا الموضوع[1] وإن اختلفوا في وجه إعجاز القرآن، إلا أنهم متفقون على الإعجاز. ويمكن حصر هذا الاختلاف فيما يأتي:

1 ـ أرجع فريق من العلماء إعجاز القرآن إلى نبوءاته في الماضي والحاضر، والمستقبل، فكل ما لا يعلمه الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تلقاء نفسه، ولم يثبت أنه تلقاه على غيره يعد أمراً غيبياً بالنسبة له.

وغيب الماضي في القرآن الكريم يمثله قصص الأمم والأنبياء السابقين، وما كان في تلك الأيام الخالية من أخبار وحوادث، وبخاصة أن من اصطفاه الله لتنزيله عليه كان أمياً لم يعرف القراءة والكتابة، كما أنه عاش بين قوم ليس لهم علم بشيء من ذلك، ولا اهتمام لهم بغير لغتهم، والتسابق فيما بينهم للوصول إلى الغاية القصوى في الفصاحة، والبلاغة، والبيان. ولم يثبت أنه اطلع على كتب السابقين، ولا تتلمذ أو اتصل بأحد من المعلمين، وحين زعم بعضهم أنه يعلمه بشر، رد الله ـ تعالى ـ ذلك بقوله: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَـٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ﴾[2]. فإذا أخبر عن الحوادث العامة من حين خلق الله «آدم» إلى مبعثه، دل ذلك على أنه أتى بالخارق للعادة المعجز للأمة.

فمن أين «لمحمد» أو لأمثاله: أخبار خلق «آدم» من تراب، وخروجه من الجنة، واستقراره في الأرض، وعداوة «إبليس» له ولذريته من بعده؟! ومن أين «لمحمد» علم بأخبار ملوك الفراعنة، وما جرى لبني «إسرائيل» على أيديهم؟! وكيف كانت نهاية «فرعون» وجنده عندما تعقبوا الفارين ممن آمنوا بنبوة «موسى» ـ عليه السلام ـ؟! وصدق الله العظيم حيث يقول ـ في قصة «موسى» ـ: ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِىِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّـٰهِدِينَ﴾[3].

---

(1) انظر: إعجاز القرآن للباقلاني ص 47 ـ 48. وتبصرة الأدلة، لأبي المعين النسفي 1/ 500 ـ 504. وأعلام النبوة، للماوردي، ص 49 ـ 50، وشعب الإيمان، للبيهقي 1/ 158 ـ 159. واللآلئ الحسان في علوم القرآن، للدكتور موسى شاهين لاشين، ص 223 ـ 226. ومناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني 2/ 227 ـ 278،

(2) الآية 103 من سورة النحل.

(3) الآية 44 من سورة القصص.

أما غيب الحاضر، فالمقصود به ما يتصل بالله ـ تعالى ـ وصفاته والإخبار بعالم الغيب من الملائكة والجن، والجنة والنار. . . إلى غير ذلك من الأسرار التي لا يمكن معرفتها إلا عن طريق الوحي الإلهي.

ومن غيب الحاضر أيضاً: فضح المنافقين، وهتك أستارهم ـ في عصر الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ من مثل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ﴾[1]. وقوله في شأن الذين بنوا مسجد «الضرار»: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[2].

ومن إعجاز القرآن إخباره بما في ضمائر البشر، والتي لا يصل إليها إلا علام الغيوب كقوله تعالى: ﴿ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا ﴾[3] من غير أن يظهر منهم قول، أو يوجد منهم فشل. وقوله: ﴿ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ﴾[4] وهذا بيان لما في ضمائر أولئك الذين خرجوا مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لاعتراض تجارة قريش، وآل الأمر إلى المواجهة العسكرية، بعد أن أفلتت العير منهم، وكانوا يفضلونها على النفير، دون أن يتكلموا بذلك[5].

---

(1) الآيتان 204 ـ 205 من سورة البقرة.

(2) الآية 107 من سورة التوبة.

(3) الآية 122 من سورة آل عمران.

(4) الآية 7 من سورة الأنفال.

(5) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني 2/ 264. الطبعة الثالثة: عيسى البابي الحلبي وشركاه.

وأما ما هو راجع إلى إخباره عن الكائنات في المستقبل، فهو كثير في القرآن، ودلالته على الإعجاز أقوى من غيب الماضي والحاضر، لأنه لا يحتمل مراء ولا جدالاً. خاصة وأنه قد وجد في ظروف غير مواتية.

إن عدداً من أذكياء العالم وعباقرة الناس، قد جرأوا على أن يتنبأوا لأنفسهم، أو لغيرهم، ولكن الزمان لم يصدق تلك النبوءات مطلقاً بالرغم من أن الظروف كانت مهيأة لتلك النتائج. لقد كتب «كارل ماركس» في مايو من عام 1849م بياناً قال فيه: إن الجمهورية الحمراء تبزغ في سماء «باريس» ورغم مرور قرن ونصف - تقريباً - على هذه النبوءة، فإن شمس الجمهورية الحمراء لم تشرق على أهالي «باريس». بل الذي حدث عكس ذلك تماماً، وهو أن هذه الشمس قد غربت على وجه الأرض، وإلى الأبد إن شاء الله - تعالى - دون أن يراها أهل «باريس» وآلت نبوءة «ماركس» إلى سلة مهملات التاريخ.

وقد قال «أدولف هتلر» في خطابه الشهير، الذي ألقاه «بميونخ» في مارس 1931: إنني سائر في طريقي، واثقاً تمام الثقة بأن الغلبة والنصر قد كتبا لي. والعالم بأجمع يعرف اليوم أن الذي كتب في قدر الجنرال الألماني العظيم كان هو الهزيمة والانتحار[1].

ولكن نبوءات القرآن هي الوحيدة التي تحققت حرفاً حرفاً، لأنها لم تأت رجماً بالغيب، ولا نتيجة اجتهادات شخصية لأفراد لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولكنها جاءت من عند علاّمِ الغيوب، الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض، ولا يخرج عن سلطانه شيء من المخلوقات جميعاً.

فنحن نعلم ما عاناه الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصحابته من عنت وتصلف قريش التي رأت في هذه الدعوة الجديدة ما يهدد كيانها، ويقضي على تلك التركيبة الاجتماعية التي لا مكان فيها لغير الأقوياء، فكيف يؤمنون بدين لا يفرق بين الغني والفقير، وبين العبد والسيد، إلا بطهارة النفس وتقوى الله؟ وهو ينادي الناس

---

(1) الإسلام يتحدى، لوحيد الدين خان، ص 177. مرجع سابق.

جميعاً ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[1] فإذا ظل هؤلاء على دين آبائهم، فليس ذلك إيماناً منهم به، أو بحق يحتويه، بل هو حرص على نظام قديم أقاموه، ثم أفاء الحظ عليهم في ظله من بسطة في المال والجاه، مما جعلهم يحرصون عليه، ويحاربون الحياة كلها دونه[2].

ولهذا وقفت «قريش» بكل ثقلها في وجه هذه الدعوة الناشئة، فوضعت خطة للقضاء على هذه الدعوة في مهدها: بدأت بتعذيب العبيد والمستضعفين ثم تحولت إلى إيذاء كل من اعتنق هذا الدين الجديد من غير تمييز. وبالإضافة إلى السخرية والاستهزاء بالرسول - صلى الله عليه وسلم - وبدعوته، مما اضطر كثيراً من المسلمين إلى الهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم.

ثم انتقلت إلى مرحلة التجويع، فقد فرضت «قريش» عليهم حصاراً منظماً عانوا فيه من الحرمان والفاقة والجوع، مدة ثلاث سنوات ولولا رجال من «قريش» لديهم عطف على المسلمين كانوا يحملون إليهم بعض الطعام سراً لهلكوا. في هذا الجو الخانق، والحياة البائسة ينزل قوله تعالى: ﴿ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴾[3]. فجعل «عمر بن الخطاب» يقول - حين نزلت هذه الآية - أي جمع هذا؟! فلما كان يوم «بدر» سمع رسول الله يرددها[4].

ولما هاجر النبي - صلى الله عليه وسلم - إلى المدينة فراراً من أذى قريش الذي وصل منتهاه بالتآمر على صاحب الدعوة، باغتياله على يد فئة من شباب قريش، تمثل كل القبائل والبطون، حتى يتفرق دمه، ويضعوا بني «هاشم» وبني «عبد المطلب» أمام الأمر الواقع، لقبول الدية. استقبلته المدينة أحسن استقبال، وبدأ النبي - صلى الله عليه وسلم - فور وصوله، في إرساء قواعد الدولة الإسلامية ببناء المسجد

---

(1) الآية 13 من سورة الحجرات.

(2) حياة محمد، محمد حسين هيكل، ص 152. الطبعة العشرون. دار المعارف بمصر.

(3) الآية 45 من سورة القمر.

(4) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، 2/ 272،

مقراً للعبادة، وفيه يجتمع المسلمون مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لدراسة وفهم المبادئ والقيم التي جاء بها الوحي الإلهي، ومنه ينطلقون لتحقيق المهمة الخطيرة التي كلفوا بها، وهي إنقاذ البشرية من غياهب الجهل والتخلف، لتكون جديرة بخلافتها لله في أرضه. وآخى بين المهاجرين والأنصار، وعقد معاهدة مع اليهود للدفاع عن المدينة، ولكن اليهود مجبولون على نقض العهود، وعدم الوفاء بها ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[1]. لذلك ما لبثوا أن تحالفوا مع القبائل العربية المشركة التي أعلنت الحرب على الإسلام منذ نشأته.

وكان الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحابته يجاهدون في سبيل نشر تعاليم الإسلام السامية على كل الجبهات: قوة المشركين، والرأسمالية اليهودية، والطابور الخامس المتمثل في أولئك المنافقين الذين تسربوا داخل المسلمين، للقضاء على حركتهم من الداخل. بالإضافة إلى مشاكل الحاجة والفقر، بعد ما تركوا ثرواتهم في «مكة».

في هذا الجو الملبد بالغيوم والآلام عاش المسلمون حياة البؤس في عراء المدينة، خائفين يترقبون الأعداء من كل جانب. بعد أن رمتهم العرب عن قوس واحدة، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح ولا يصبحون إلا فيه، فقالوا: أترون أنا نعيش حتى نبيت مطمئنين لا نخاف إلا الله؟ فنزل قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾[2] هكذا كان حال الصحابة أيام أن وعدهم الله ما وعد، وما أعجل تحقق هذا الوعد الإلهي، رغم هذه الحال المنافية في العادة لما وعد، فدالت الدولة لهم، واستخلفهم في أقطار الأرض، وأورثهم ملك «كسرى» و«قيصر» ومكن لهم دينهم الذي ارتضى

---

(1) الآية 100 من سورة البقرة.

(2) الآية 55 من سورة النور.

لهم، وأبدلهم من بعد خوفهم أمناً[1]. والعقل البشري يقف عاجزاً عن فهم هذه النتيجة في ظل المصطلحات المادية، ولم يبق له إلا التسليم بأنها جاءت من عند من لا يعجزهُ شيء في الأرض ولا في السماء.

وإذا تتبعنا أمثال هذه الأخبار المغيبة في القرآن الكريم، ناهيك عن السنة الشريفة المطهرة، فإننا نجد كثيراً وكثيراً مما يصعب حصره، ويعسر عده: كحديث القرآن عن انتصار الروم على الفرس في مدة محددة لا تتجاوز العشر سنوات، في الوقت الذي لا تدل فيه الدلائل على ذلك: فالروم أمة مهزومة مفككة، قبلت شروط «كسرى» القاسية، بدفع إتاوة باهظة زادت من عناء الشعب الروماني. و«هرقل» حاكم الروم غارق في ملذاته وشهواته.

وكانت أحداث الفرس والروم، قد انعكست على الجزيرة العربية بطريق أو بآخر، ورأت قريش في انتصار الفرس المجوس عباد الشمس والنار، على الرومان المؤمنين بالوحي الإلهي فرصة لتذكير المسلمين بأنَّ نهايتهم لا تختلف عن نهاية إخوانهم من الرومان، وأصبح الصراع بين الفرس والروم، رمزاً خارجياً للصراع بين المسلمين والمشركين في «مكة» الأمر الذي جعل كلا من الجماعتين تشعر بأن نتيجة هذا الصراع، هي مآل صراعيهما نفسه.

لذلك بدأت قريش تسخر من المسلمين وتتحرش بهم، وتتوعدهم بأن نهايتهم لا تختلف عن نهاية إخوانهم الرومان، إن لم يستجيبوا لرغبة القرشيين، ويتصالحوا معهم. في هذه الأثناء ينزل على الرسول وحي إلهي، يحدد بكل دقة نتيجة هذا الصراع، والمدة الزمانية له، يقول تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾[2]. وما كادت هذه البشرى تقرع سمع النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحابته حتى بدأت

---

(1) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن 2/ 270 ـ 271. مرجع سابق.

(2) الآيات 1 ـ 5 من سورة الروم.

أحوال الشعب الروماني تتغير رأساً على عقب، على يد «هرقل» نفسه، الذي كان بالأمس غارقاً في الملذات وعبادة الأوهام، ليتحول إلى رجل حرب يقود أمته إلى استرجاع كل شبر أرض اقتطعه منهم الفرس، الذين طلبوا الصلح، وأعلنوا تنازلهم عن الأراضي الرومانية، كما أعادوا إليهم الصليب المقدس الذي اغتصبوه منهم ضمن البلاد التي استولى عليها الفرس[1]. وهكذا صدق ما تنبأ به القرآن من غلبة الروم في المدة المقررة، وهي أقل من عشر سنين كما يفيده لفظ «بضع» عند العرب.

2 ـ وذهب فريق آخر[2] إلى أن إعجاز القرآن راجع إلى أنه بديع النظم عجيب التأليف متناه في البلاغة والبيان إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه. فإن الله ـ تعالى ـ أنزله على وصف مباين لأوصاف كلام البشر، لأنه منظوم، وليس بمنثور، ونظمه ليس نظم الرسائل، ولا نظم الخطب والأشعار، ولا هو كأسجاع الكهان. فقد جمع الجزالة والنظم البديع، والأسلوب الذي تفرد به، وهو أسلوب مغاير لكل أساليب كلام العرب جميعاً. ولهذا كان سماع القليل من القرآن حرياً بأن يلفت السامع إلى أنه يسمع كلاماً ليس من كلام البشر، ولكنه كلام رب العالمين، إذ ليس في طباع البشر أن يجيء واحد منهم فيأتي بنظم يتفرد به عن بني جنسه، ثم يتحداهم جميعاً، ويعيرهم بالقصور عنه، والعجز دونه، وفيهم الفصحاء، والبلغاء، وفحول الشعراء، والخطباء المفوهون في وقت وصلت فيه اللغة العربية أوج عظمتها من الاعتناء بها، والاعتداد بالنابغين فيها، والاعتزاز بالجيد منها، وكان العرب قد استكملوا ملكة النقد والمفاضلة التي تؤهلهم للحكم على جيد الكلام من رديئه، لأنهم وقفوا حياتهم على تهذيب هذه اللغة وصقلها، والتمسوا عظمتهم من ورائها فكانت لهم مناظرات ومساجلات بين شعرائهم وأدبائهم في سوق «عكاظ» كل سنة، وتوجوا ذلك كله بالمعلقات على

---

(1) الإسلام يتحدى. ص 185 وما بعدها. بتصرف.

(2) انظر: المنهاج في شعب الإيمان للحليمي، 1/ 263 وما بعدها. وإعجاز القرآن للباقلاني ص 49 ـ 51. وشرح المواقف للأيجي 8/ 244، 245. وشرح المقاصد للتفتازاني 5/ 28 ـ 29. وتبصرة الأدلة لأبي المعين النسفي 1/ 509 ـ 512.

جدار الكعبة. ومع ذلك فليس للعرب كلام في طول القرآن، مع اشتماله على أصناف كثيرة من وجوه المعاني والبديع، والحكم الكثيرة، والفوائد الغزيرة، وبراعة الاستهلال وحسن الختام. وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة لا تخلو من التناقض والاختلاف.

أما القرآن الكريم فبالرغم من أنه نزل منجماً حسب الوقائع والمناسبات، ودام نزوله ما يقرب من ثلاث وعشرين سنة، واشتمل على الذكر والقصص، والمواعظ والأمثال، والإنذار، والبشارة، والعلم والتعليم... ومن تأمل نظمه مع انقسامه إلى تلك الوجوه، فإنه يجده على وتيرة واحدة من حسن النظم، وجزالة اللفظ، وفخامة الأسلوب على ما وصفه منزله بقوله: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾[1] وقوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾[2].

ولا شك أن العرب الذين لم يعرف التاريخ لهم مثيلاً في البلاغة والبيان حتى أطلقوا على غيرهم اسم «العجم» لشدة اعتزازهم ببيانهم قد اضطروا إلى أن يركعوا أمام القرآن، وإذا كان أهل الصناعة هؤلاء قد عجزوا عن معارضة القرآن، فغيرهم أشد عجزاً. وهذا يدل على أن القرآن آية من الله ـ تعالى ـ أراد أن يظهر بها صدق «محمد» ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيما ادعاه من الرسالة، وأنه مبعوث إلى الناس كافة.

3 ـ ذكر «الحليمي» وجهاً آخر للإعجاز عبر عنه بقوله: وهو أن الناس حين بعث الله رسوله «محمداً» ـ صلى الله عليه وسلم ـ كانوا فريقين: معطلين ومليين. وتعطيل المعطلة ـ من العرب ـ كان عن تقليد لا كتعطيل الفلاسفة، إذ لم يكن للعرب من البصر بالحجج وطرق النظر، ما للفلاسفة.

---

(1) الآية 23 من سورة الزمر.

(2) الآية 82 من سورة النساء.

وكذلك المتدينين منهم بنصرانية أو يهودية، أو مجوسية، كان عن تقليد أيضاً، ولم يكن لهم في الجدل، والنظر والحجاج نصيب.

وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ مولده «بمكة» بها تربى، وعلى عادة أهلها نشأ، لم يجالس النظار، ولم يخالط حملة الأسفار، إذ لم يكن في بلده منهم أحد، ولا ارتحل إلى من كان منهم في غير بلده، فجالسه والتقى به، ولا كان الخوض في البحث عن أصول الديانة وفروعها من دأبه. وكان مع ذلك لا يقرأ ولا يكتب.

ثم إنه جاءهم بهذا الكتاب العظيم المشتمل على آيات الإثبات، والتوحيد، والتسبيح والتقديس والتمجيد، وتقرير العبادات على اختلاف وجوهها، وإبانة الأحكام في عامة الحوادث على كثرتها، ومخالفتها لما عليه الملّيون قبله، وتمهيد قواعد العقائد، وإقامة الحجج عليها، والإرشاد إلى طرق الجدل مع الخصوم... إلى غير ذلك من سائر العلوم التي لا تحصى، مع أنه كتاب وجيز، وفيه تكرار، حسبما اقتضته الحكمة الإلهية، ودعت الحاجة إليه، ومع ذلك فقد اشتمل من بيان أحكام الحوادث على ما أفاده بعضها بلفظه صريحاً، وبعضها الآخر بما تضمنه من المعنى الذي يتوصل به إلى معرفة الحكم فيما قصر اللفظ عنه.

ومن علم النظر والاستدلال على ما لا مزيد عليه.

ومن علم العبادات والمعاملات، وأبواب المناكحات والجنايات على اختلاف وجوهها وأقسامها، وما يحتاج إليه من معرفة أحكامها. ومن علم الآداب والأخلاق وأحوال القلوب، ما لا تبلغه بلاغة البلغاء، ويعجز عنه عليَّةُ الفصحاء، فلا تخلو حادثة تحدث إلى قيام الساعة إلا ويمكن استدراك حكمها من قبله، أو من وجه يكون مرجعه إليه، ومصدره منه، فلا تكاد العقول تبصر طريقاً سواه.

ويضاف إلى ذلك أنه ما من باب من الأبواب التي اشتمل عليها القرآن، إلا وهو ناقض به عادة فريق[1] من الفرق التي كانت معروفة في بيئته، فبالشرائع والأذكارِ والدعوات، نقض عادة العرب، وخالف طريقة عامة المعطلة. فلا يمكن أن

---

(1) هكذا في الأصل، ولعلها فرقة حتى يستقيم المعنى.

يكون قد أخذ عنهم ما لم يكن عندهم. فهم لا يقولون: بأمر ولا نهي، ولا تحليل ولا تحريم، ولا وعد ولا وعيد، ولا عبادة قط. وأما أهل الملل فقد خالفهم - أيضاً - لأنه جاء بغير ما كانوا عليه من العبادات والأحكام، وكذبهم في كثير مما كانوا يدعونه ديناً، وينسبونه إلى الله - تعالى - ولعنهم وكفرهم وضللهم، وقتلهم وغنم أموالهم، وفرض الجزية على من سالمه منهم. . . فلا يمكن أن يكون أخذ ما يخالف دينه عنهم.

وأما ما يوافق قولهم، فلو كان أخذه عنهم، لم يخف ذلك على «النجاشي» - الذي كان أتباع «محمد» يلجؤونَ إليه - وهو يومئذ ملك النصرانية، وقد جاءهم بنسخ أحكامها، وتبديل شرائعها، وتكذيب أكثر الدائنينَ بها مما كانوا يقولونه في «عيسى» عليه السلام[1].

ويذكر «ابن رشد» أن كل من وجد منه هذا الفعل، الذي هو وضع الشرائع بوحي من الله، فهو نبي، ويقول: وهذا الأصل غير مشكوك فيه في الفطر الإنسانية. فإنه كما أن من المعلوم بنفسه أن فعل الطب هو الإبراء، وأن من وجد منه الإبراء فهو طبيب. كذلك أيضاً من المعلوم بنفسه أن فعل الأنبياء - عليهم السلام - هو وضع الشرائع بوحي من الله، وأن من وجد منه هذا الفعل فهو نبي[2].

ويشيد الدكتور «محمد يوسف موسى» بهذا الرأي عند «ابن رشد» ويقول - بعد أن يذكر وجوهاً من إعجاز القرآن -: بأنه مع ذلك كله، فإن الفيلسوف والقاضي الأكبر «ابن رشد» يزيد عليه ناحية أخرى، تفرد بها عن علماء الكلام والتوحيد. إنه قد أربى عليهم حقاً بما ذهب إليه، وبينه في «مناهج الأدلة» من أنه لتدل المعجزة دلالة قاطعة على النبوة يجب أن تكون مناسبة لرسالة النبي. . . التي هي إرشاد البشر إلى الحق والعدل بالشريعة التي يأتي بها[3].

---

(1) المنهاج في شعب الإيمان، 1/ 272 - 274 بتصرف.

(2) مناهج الأدلة في عقائد الملة ص 216. مرجع سابق.

(3) الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، ص 103. مرجع سابق.

والواقع أن «ابن رشد» قد أخذ هذه الفكرة عن «أبي حامد الغزالي» كما صرح «ابن رشد» نفسه بذلك في كتابه «تهافت التهافت» كما أشار إلى ذلك الدكتور «محمود قاسم»[1].

وقد رأينا كيف سبق «الحليمي» الجميع، ولكن بصورة أوسع وأشمل.

4 ـ وذهب فريق[2] إلى أن إعجاز القرآن «بالصرفة» على معنى: أن الله صرف العرب عن معارضته، على حين أنه لم يتجاوز في بلاغته مستوى طاقتهم البشرية. وينسب هذا القول إلى «أبي إسحاق النظام» من المعتزلة، و«أبي إسحاق الإسفراييني» من الأشاعرة، و«المرتضى» من الشيعة.

وهذا الاتجاه جانبه الصواب لعدة أسباب منها:

أ ـ أن القول بالصرفة يؤدي إلى أن «الصرف» هو المعجز لا القرآن نفسه، وهذا مخالف لإجماع الصدر الأول من المسلمين، على أن القرآن معجزة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ دالة على صدقه.

ب ـ لو كان القرآن معجزاً بالصرفة، لوجد في كلام العرب ـ قبل نزول القرآن ـ ما يدانيه، أو يقاربه على الأقل. ولكن القرآن جاء مغايراً لأساليب العرب جميعها ـ كما تقدمت الإشارة إليه.

جـ ـ قصة «الوليد بن المغيرة» وهي قصة مشهورة وردت في كتب الحديث، والسيرة، والتاريخ، والتراجم... وخلاصتها:

أن «الوليد» اجتمع إليه نفر من قريش، وكان ذا سن فيهم ـ فقال لهم: يا معشر قريش، إنه قد حضر الموسم، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ولا تختلفوا، فيكذب بعضكم بعضاً، قالوا: فأنت يا «أبا عبد شمس» فقل وأقم لنا رأياً نقل به، فقال: بل أنتم فقولوا وأسمع،

---

(1) انظر: مناهج الأدلة. ص 216 بالهامش.

(2) انظر: شرح المواقف، 8/ 245. وشرح المقاصد، 5/ 28. وتبصرة الأدلة 1/ 512. وإعجاز القرآن ص 43. وأعلام النبوة ص 56. ومناهل العرفان 5/ 210.

قالوا: نقول إنه كاهن، قال: ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهان، فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه، قالوا: نقول إنه لمجنون، قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه ولا تخالجه، ولا وسوسته، قالوا: فنقول إنه شاعر، قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه فما هو بالشاعر، قالوا: فنقول ساحر، قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار وسحرهم، فما هو بنفثهم ولا عقدهم، قالوا: فما تقول يا «أبا عبد شمس»؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة، وإن أصله لمغدق، وإن فرعه لجناة، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل، وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته، فتفرقوا عنه في ذلك[1].

فانظر إلى هذا الرجل حين أرسل نفسه على سجيتها العربية، وبديهتها الفطرية، كيف أنصف في حكمه، حين تجرد ساعة من كفره، وعناده.

د ـ قوة تأثيره في نفوس العرب ونفوذه إلى قلوبهم، رغم صدهم عنه، واضطهادهم لمن أذعن له، فكانوا يتسللون في جنح الليل المظلم ـ رغم تعاهدهم على خلاف ذلك ـ يستمعون إلى ترتيل المسلمين له في بيوتهم، وما ذاك إلا لأنه استولى على أحاسيسهم ومشاعرهم، ولكن الكبر والعناد، وحمية الجاهلية هي التي حالت بينهم وبين الخضوع له واتباعه.

ولذلك هالهم أمر «أبي بكر» الذي كان يصلي به في فناء داره، أن يتأثر به الشباب والنساء والصبيان، الذين كانوا يجتمعون عليه، ليستمعوا إليه ويتأثروا لبلاغته وفصاحته.

هـ ـ ما في القرآن من وجوه الإعجاز ـ والتي ذكرنا طرفاً منها ـ وهي لا تزال ماثلة للعيان، ناطقة بإعجاز هذا الكتاب إلى يومنا هذا، ولا تزيدها الأيام، وما يجد في العالم من علوم ومعارف، وابتكارات وتجارب إلا وضوحاً وبياناً.

---

(1) دلائل النبوة، لأبي نعيم الأصبهاني. 1/ 232. تحقيق: محمد رواس قلعه جي، وعبد البر عباس. الطبعة الثانية 1406هـ ـ 1986م. دار النفائس للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت ـ لبنان.

و ـ القول بإعجاز القرآن «بالصرفة» دعوى لا دليل عليها. سوى قولهم: إن القرآن لم يتجاوز في بلاغته مستوى طاقة البشر. وهذا القول ليس بدليل، فضلاً عن أنه معارض بأوجه الإعجاز المتعددة لهذا القرآن، والتي تعتبر بلاغة القرآن وفصاحته، واحدة منها وليست كل الوجوه.

وإني لأعجب من القول بالصرفة في ذاته، ثم ليشتد عجبي وأسفي حين ينسب إلى ثلاثة من علماء المسلمين الذين نرجوهم للدفاع عن القرآن، ونربأ بأمثالهم أن يثيروا مثل هذه الشبهات في إعجاز القرآن!!.

ويشك كثيرون[1] في صحة نسبة هذه الآراء السقيمة إليهم، والطعن في نسبتها إليهم. والقول بأنها مدسوسة من أعداء الإسلام عليهم. أقرب إلى العقول، لأن ظهور وجوه الإعجاز في القرآن من ناحية. وعلم هؤلاء من ناحية أخرى، قرينتان مانعتان من صحة عزو هذا الرأي إليهم.

على أن الحق لا يعرف بالرجال، إنما يعرف الحق بسلامة الاستدلال.

5 ـ الإعجاز العلمي للقرآن الكريم: إن دراسة موضوع الإعجاز العلمي ـ في هذا العصر ـ لجديرة بالاهتمام، لما تمثله من دعم روحي لأولئك الذين يؤمنون بالإله الواحد الأحد ﴿ ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾[2] وينير الطريق لأولئك الحيارى الذين يسيرون في الفلاة من غير مرشد عارف بوعورة وخطورة الطريق الذي يسلكونه، إذا لم تتضح لهم معالمه، وتعرف دروبه الموصلة إلى شاطئ الأمان.

فكل ما تحدث عنه القرآن الكريم: من تشريع وسياسة وأدب وأخلاق، واستدلال على العقيدة، وعرض لجمال الكون، وآياته الباهرة، لا يمكن على مر الدهور والأزمان ـ مهما اتسعت دائرة العلم والاختراع ـ أن تصادم آياته الكريمة، علماً مقطوعاً بصحته. فلا تعارض بين القرآن، وبين الحقائق العلمية التي تقوم على أساس التجربة والبرهان. بل هو يؤيدها، ويؤكدها. ولكن يجب أن نفرق بين الحقائق

---

(1) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، للزرقاني. 2/ 315.

(2) الآية 50 من سورة طه.

العلمية الثابتة، والنظريات والفروض، التي لم تصل بعد إلى مرحلة اليقين، فكثير من النظريات التي كانت سائدة في العصور الماضية أثبت العلم الحديث المتقدم بطلانها.

والقرآن الكريم لم يطرأ عليه أي تغير رغم مضي أكثر من أربعة عشرة قرناً من الزمان على نزوله، وهذا يدل دلالة قاطعة على أنه من عند إله قادر، يحيط علمه بالأزل والأبد. فلو كان هذا الكلام صادراً عن البشر محدودي النظر والعلم، لكان الزمان كفيلاً بإبطاله، كما هو شأن كثير من العلوم الإنسانية.

إن المحور الحقيقي لرسالة القرآن هو السعادة الأخروية، فهو بذلك لا يدخل في دائرة أيٍّ من علومنا وفنوننا الحديثة. ولكن حيث إنه يخاطب الإنسان، فهو يمس كل ما هو متعلق به... وهناك أمثلة تدل صراحة على أن القرآن الكريم أحاط ببعض الحقائق التي لم تعرف إلا في عصرنا هذا، وإن كانت إحاطته هذه ضمن إشارات غير مقصودة لذاتها... ومطابقة ألفاظ القرآن للكشوف الحديثة مبنية على أن العلم الحديث، قد استطاع الكشف عن أسرار الواقعة «موضوع البحث» فتوفرت لدينا مواد نافعة لتفسير الإشارات القرآنية في ذلك الموضوع، ولو أن الدراسة في المستقبل أبطلت واقعة من وقائع العلم ـ في موضوع ما ـ كلياً أو جزئياً، فليس هذا بضائر صدق القرآن، بل معناه أن المفسر أخطأ في فهم وتفسير تلك الإشارة المجملة في القرآن الكريم[1]. وإن كنا على يقين راسخ بأن الكشوف المقبلة سوف تكون أكثر إيضاحاً لتلك الإشارات القرآنية، وأكثر بياناً لمعانيها الكامنة.

إن هناك أشياء كثيرة كان الأقدمون يعرفون عنها بعض المعارف الجزئية، ولكنها معارف ناقصة، إذا ما قيست بما وصل إليه إنسان هذا العصر، بفضل الاختراعات الحديثة، ولم يكن القرآن كتاباً في العلوم والهندسة، فلو كشف عن أسرار الطبيعة لاختلف الناس حوله. ولاستحال أن يحقق الهدف الذي جاء من أجله، وهو إصلاح العقل الإنساني وتزكيته.

---

(1) الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان. ص 194 ـ 195. بتصرف. مرجع سابق.

فمن إعجاز القرآن أنه تكلم في لغة العلم قبل كشفه، ولكنه استعمل كلمات وتعبيرات لم تستوحشها أذواق الأقدمين، ولا معارفهم، على حين أحاطت بكشوف العصر الحديث[1]:

1 ـ فمن ذلك قوله تعالى ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾[2]. وقد نزلت هذه الآية على الرسول قبل أن يصل الإنسان إلى اختراع الوسائل الحديثة التي استطاع بواسطتها الصعود إلى طبقات الجو العليا، وقبل أن يعرف كثيراً عن مكونات الهواء وخواصه، ولزومه للحياة، مما جعل المفسرين القدامى يقولون في التماس وجه الشبه كأنما يصعد في السماء: إن الإنسان إذا كلف الصعود إلى السماء، ثقل ذلك التكليف عليه، وعظم وصعب، وقويت نفرته منه. فكذلك الكافر، يثقل عليه الإيمان وتعظم نفرته منه.

أو أن يكون التقدير: إن قلب الكافر ينبو عن الإسلام، ويتباعد عن قبول الإيمان، فشبه ذلك البعد ببعد من يَصَّعَّدُ من الأرض إلى السماء.

أو كأنه يزاول أمراً غير ممكن، لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة، وتضيق عنه المقدرة[3].

وعندما وصل الإنسان إلى الطبقات العليا للجو، أصبحت الصورة عنده أكثر وضوحاً، حيث ثبت أن الأكسجين أمر ضروري للحياة على وجه الأرض، فهو يجدد نقاء الدم، ويكسب الكائنات القدرة على الحركة والعمل كما يدخل أيضاً في جميع عمليات الاحتراق. وتقوم النباتات بدور أساسي في هذا المجال. فهي التي تقوم بتنقية الهواء من الكربون، وتعيده خالصاً نقياً وتتم هذه العملية بواسطة ضوء الشمس.

---

(1) المرجع السابق، ص 196.

(2) الآية 125 من سورة الأنعام.

(3) تفسير الكشاف، للزمخشري. 2/ 49. مرجع سابق.

وتبلغ كمية الأكسجين في الجو نحو الخمس من حيث الحجم. والغلاف الجوي كأي جسم له وزنه، وهو ما يعرف بالضغط الجوي. وهو يعرف عند أي نقطة بأنه وزن عمود الهواء المقام على السنتيمتر المربع حول تلك النقطة. ويتناسب هذا الضغط مع الارتفاع تناسباً عكسياً، فكلما زاد الارتفاع قل الضغط، ونتج عن ذلك نقص في الأكسجين.

وقد لاحظ الإنسان ذلك عند قيامه بغزو الفضاء، فكلما زاد الإنسان في الارتفاع صاحبه نقص في الضغط الجوي، وفي كميات الأكسجين، بحيث يصل إلى حالة من الاختناق وهو لا يبعد عن سطح الأرض بأكثر من ألف كيلومتر تقريباً[1].

2 ـ يقدم القرآن الكريم السمع على البصر في كل المواضع التي جمعت بينهما، وهذا الترتيب إنما جاء لفائدة عظيمة، وإذا كانت هذه الفائدة قد ظلت مغمورة فترة طويلة، لأن القدماء لم يصلوا إلى معرفة سر هذا التقديم، واستراحوا إلى ما ذكره علماء اللغة من أن «الواو» لمطلق الجمع، فهي لا تقتضي ترتيباً ولا تعقيباً. فإن الحقائق العلمية اليوم تثبت أن حاسة السمع تؤدي مهمتها منذ اللحظة الأولى للولادة بخلاف حاسة البصر التي لا تقوم بوظيفتها إلا بعد أيام من الولادة.

يضاف إلى ذلك أن حاسة السمع أوسع من دائرة البصر، فالإنسان يرى في اتجاه واحد، في حين يدرك الأصوات من أي جهة تحيط به، سواءً أكان السامع في الفضاء، أم من وراء جدار. إلى جانب أن فقدان البصر لا يفقد صاحبه إمكانية اتصاله بالجماعة التي يعيش بينها من بني جنسه، في حين أن فقدان حاسة السمع تجعل من العسير على صاحبها القدرة على فهم ما يدور حوله من آراء وأفكار، باعتباره أمراً ضرورياً في التعامل مع الآخرين.

وهناك سر آخر ـ يتعلق بوظائف الأعضاء ـ كشف عنه العلم الحديث: وهو أن السمع هو الحاسة الوحيدة التي تؤدي مهمتها في أثناء النوم. وهذا يفسر لنا جانباً من

---

(1) الكون بين العلم والدين، الدكتور محمد جمال الدين الفندي. ص 36. الكتاب الرابع عشر 1972م. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

قصة أصحاب أهل الكهف، التي يقول الله فيها: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾[1] حيث إن الله يريد أن ينيمهم مدة طويلة، وهذا النوم يأتي على غير مألوف البشر، فالذي نام قسطاً وافراً توقظه أدنى حركة أياً كان مصدرها، ولكن الباري - عز وجل - أراد أن يمنع عنهم المنبهات... فقال: فضربنا... ولو لم يقل الحق ذلك لبقيت الآذان تؤدي مهمتها، الأمر الذي يجعل أي صوت خارجي يوقظهم فلا ينامون[2].

3 - إن المتتبع لقائمة الأشياء التي حرمها القرآن، يدرك بوضوح حكمة هذا التحريم، وقد ساعد العلم في العصر الحديث - في ضوء ما توصل إليه من حقائق علمية - ساعد العقل البشري على فهم أسرار وحكم هذا التحريم، فالقرآن كثيراً ما يتبع الأحكام الشرعية بالدعوة إلى العلم بأسرارها والتفكير في آثارها ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾[3].

فلو أخذنا أنموذجاً من قائمة الأغذية التي حرم القرآن على الإنسان تناولها، لوجدنا من بينها «الدم والخنزير» وقد أثبتت التحليلات الحديثة، احتواء الدم على كمية كبيرة من «حمض البوليك» وهي مادة سامة تضر بالصحة لو استعملت غذاءً للإنسان، ولهذا شرع القرآن ذكاة الحيوان بطريقة خاصة، تؤدي إلى خروج الدم الضار، وهو «الدم المسفوح» والذي يعتبر أصلح مادة لنمو الجراثيم، فبمجرد ذبح الحيوان يصبح عرضة لانتشار الجراثيم فيه، فإذا تناوله الإنسان، فكأنما شرب مزرعة نمت فيها الجراثيم وتكاثرت[4].

ولعل هذا هو السر في تحريم القرآن أكل الميتة، لبقاء تلك الجراثيم، بسبب تجمد الدم في العروق، وهكذا يتسمم اللحم كله نتيجة سريان «حمض البوليك» في

---

(1) الآية 11 من سورة الكهف.

(2) التفسير العلمي للقرآن في الميزان. الدكتور أحمد عمر أبو حجر. ص 474. الطبعة الأولى 1411هـ - 1991م. دار قتيبة للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. دمشق.

(3) الآية 42 من سورة الأنفال.

(4) بين الطب والإسلام، الدكتور حامد الغوابي. ص 90. دار الكتاب العربي 1967م. القاهرة.

أجزائه كلها. أما لحم «الخنزير» فقد حرمه القرآن تحريماً مطلقاً، ذبح أم لم يذبح، ولم يعرف الإنسان في الماضي حكمة هذا التحريم. ولقد أثبت الطب في هذا العصر أن آكل لحم الخنزير يصاب بعدة أنواع من الأمراض التي من بينها «الروماتيزم» وآلام المفاصل، لاحتوائه على أكبر كمية من «حمض البوليك» بين سائر الحيوانات على وجه الأرض، والتي تتخلص من هذه المادة عن طريق البول، وجسم الإنسان يفرز 9٪ من هذه المادة بواسطة «الكليتين» ولكن الخنزير لا يتمكن من إخراج «حمض البوليك» إلا بنسبة 2٪ والكمية الباقية تصبح جزءاً من لحمه، ولذلك يعاني الخنزير من ألم المفاصل[1].

وهناك مرض آخر يمكن أن يصاب به آكل لحم الخنزير، وهو ما يعرف «بالدودة الشريطية» وهي دودة لا تنمو ولا تتكامل إلا بين الإنسان والخنزير، ولا تصيب بعدواها سواهما.

ولعل البعض يقول: إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت، فلم تعد هذه الديدان تمثل خطورة، لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية التي توفرها تلك الوسائل. وينسى هؤلاء أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة، فمن ذا الذي يجزم، بأنه ليس هناك آفات أخرى في لحم الخنزير لم يكشف عنها بعد؟! أفلا تستحق الشريعة التي سبقت العلم البشري ببضع قرون أن نثق بها، وندع كلمة الفصل لها، ونحرم ما حرمت، ونحلل ما حللت، وهي من لدن حكيم خبير[2].

إن الباحث في القرآن الكريم يجد أمثلة لا حصر لها والتي أشرت إلى بعضها في الصفحات الماضية، وهي دليل قاطع على أن القرآن فوق مستوى البشر بل والمخلوقات جميعاً فلا بد أن يكون إذن من عند علام الغيوب سبحانه وتعالى، وأن يد التبديل والتغيير لم تصل إليه كما وصلت للكتب السابقة عليه.

---

(1) الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان. ص 209. مرجع سابق.

(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، 1/ 155 ـ 156. مرجع سابق.

ثالثاً: سلامة القرآن من التحريف:

تقدم لنا عند الحديث عن «مصدر القرآن» أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ تلقى هذا القرآن عن رب العزة بواسطة رسول الوحي «جبريل» ـ عليه السلام ـ وكان ينزل منجماً وفق الوقائع، والمناسبات والحوادث، وأنه الكتاب الوحيد الذي جاء بلفظه ومعناه من عند الله ـ تعالى ـ.

وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من شدة حرصه على استظهار القرآن وحفظه، أنه كان يحرك به لسانه، أثناء نزول الوحي عليه، مخافة أن تذهب عنه كلمة، أو يضيع منه حرف. وما زال ـ صلى الله عليه وسلم ـ كذلك حتى طمأنه رب العزة. وضمن له جمعه في صدره بقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ۝ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾[1].

وكان صلى الله عليه وسلم يقرؤه على الناس على مكث. وكان «جبريل» يعارضه القرآن في كل عام مرة. في شهر رمضان. وعارضه في العام الأخير مرتين. وكان الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ يتنافسون في استظهار القرآن وحفظه، ويتسابقون إلى مدارسته وتفهمه، ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما يحفظون منه.

وكان التركيز في بداية نزوله على جمعه في الصدور، لأن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أمي بعث في قوم أميين، فلم يكن بد من الاعتماد أولاً وبالذات على الذاكرة والحفظ. وكان العالمون بالكتابة من المسلمين ـ أوائل نزول القرآن قلة، ولم تكن أدوات الكتابة ميسورة عندهم في ذلك العصر، ولكن مع ذلك، لم تحل تلك الصعوبات دون جمعه بالكتابة والنقش في حدود الإمكانات المتاحة.

---

(1) الآية 16-17 من سورة القيامة.

وقد اتخذ النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من تلك القلة كتاباً للوحي. وما يكاد ينتهي نزول الوحي حتى يطلب من أحدهم كتابة تلك الآية أو الآيات، وكان يدلهم على موضع المكتوب من سورته، وكان هذا الترتيب بتوقيف من الله تعالى عن طريق جبريل عليه السلام.

ولما انتقل الرسول إلى الرفيق الأعلى، وآل أمر الخلافة إلى «أبي بكر» واجه المسلمون أحداثاً شداداً منها موقعة «اليمامة» (سنة 12هـ) وكانت معركة حامية الوطيس، استشهد فيها كثير من الصحابة، كان من بينهم سبعون قارئاً.

فزع «عمر بن الخطاب» لهذا الأمر، فأسرع إلى «أبي بكر» يقول له: إن القتل قد استحر (أي اشتد) بالقراء في اليمامة، وإني أخشى أن يستحر بهم القتل في المواطن الأخرى، فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن. فقال «أبو بكر» كيف نفعل شيئاً لم يفعله رسول الله؟! فقال «عمر»: هذا والله خير، فلم يزل يراجعه حتى شرح الله صدر «أبي بكر» ورأى ما رآه «عمر» فعزم على تنفيذه.

وأسندت هذه المهمة الخطيرة إلى «زيد بن ثابت» وهو شاب ثقة كان يكتب الوحي لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأضيف إليه «عمر» ورسم لهما «أبو بكر» خطة العمل، وفق منهج دقيق محكم يضمن لكتاب الله قدسيته وجلاله، وسلامته من التبديل والتغيير. قال لهما:

1 ـ لا تعتمدا على حفظكما، ولا على كتابتكما في جمع القرآن. وخذاه من المسلمين، فأنتما قاضيان والقاضي لا يحكم بناءً على علمه.

2 ـ لا تقبلا شيئاً من مجرد الحفظ بل من المكتوب الموافق للحفظ.

3 ـ بل لا تقبلا من أحد شيئاً حتى يشهد شاهدان على أن ذلك المكتوب هو مما كتب بين يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ[1].

---

(1) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن 1/ 245 ـ 246. واللآلئ الحسان في علوم القرآن 53 ـ 54.

في إطار هذه الخطة المحكمة شرع «زيد بن ثابت» في جمع القرآن و«أبو بكر» و«عمر» وكبار الصحابة يشرفون عليه ويعاونونه في هذا المشروع الجلل. وأتى الصحابة بما عندهم من الألواح والصحف... استجابة للنداء الذي وجهه إليهم «عمر»: «من كان تلقى من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ شيئاً من القرآن فليأت به» فكتب «زيد» ما جمع في صحائف، وكان الذي يملي «أبي بن كعب» والذي يكتب «زيد بن ثابت» في حضرة «عمر بن الخطاب».

وقد قوبلت تلك الصحف ـ التي جمعها «زيد» ـ بما تستحق من عناية فائقة، فحفظها «أبو بكر» عنده، ثم حفظها «عمر» من بعده، ثم حفظتها أم المؤمنين «حفصة بنت عمر» بعد وفاته، حتى طلبها «عثمان» حيث اعتمد عليها في استنساخ المصاحف.

وقد امتازت هذه الصحف بعدة مزايا أذكر منها:

1 ـ أنها جمعت على أدق وجوه البحث والتحري، وأسلم أصول الثبت العلمي.

2 ـ أنه اقتصر فيها على ما لم تنسخ تلاوته.

3 ـ أنها ظفرت بإجماع الأمة عليها، وتواتر ما فيها[1].

وفي زمن «عثمان بن عفان» اتسعت رقعة الدولة الإسلامية، وتفرق الصحابة في الأمصار الإسلامية الجديدة. ونبتت ناشئة جديدة كانت بحاجة إلى دراسة القرآن، وطال عهد الناس بالرسول والوحي والتنزيل، وان أهل كل إقليم يأخذون بقراءة من اشتهر بينهم من الصحابة. وفي هذه الأثناء تجمع جيش من العراق وفيه «حذيفة بن اليمان»، وجيش من الشام، وتوجهوا لغزو «أرمينية» و«أذربيجان» وفي مسجد من المساجد اجتمع فيه الجنود يتدارسون كتاب الله. فسمع «حذيفة» رجلاً يقرأ والآخر يخطئه ـ لعدم معرفة تلك الأمصار بالأحرف السبعة التي نزل عليها القرآن، وتنازعوا حتى كادت الفتنة تقع بينهم. فغضب «حذيفة» واحمرت عيناه،

---

(1) اللآلئ الحسان في علوم القرآن، الدكتور موسى شاهين لاشين ص 57. مطبعة الفجر الجديد. القاهرة (1982م).

ثم قام فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: هكذا كان من قبلكم اختلفوا، والله لأركبن إلى أمير المؤمنين، وما أن انتهت المعارك بالنصر، حتى توجه إلى «المدينة» ولم يدخل بيته حتى دخل على «عثمان» فقال: يا أمير المؤمنين، أدرك الناس. فقال «عثمان» وما ذاك؟ قال: غزوت «أرمينية» فإذا أهل الشام يقرءون بقراءة «أبي بن كعب» فيأتون بما لم يسمع أهل العراق، وإذا أهل العراق يقرؤون بقراءة «عبدالله بن مسعود» فيأتون بما لم يسمع أهل الشام، فيكفر بعضهم بعضاً، فتعاظم ذلك في نفس «عثمان» واستشار الصحابة، فاستقر الرأي على جمع الأمة على مصاحف يحرق ما عداها[1].

ولتحقيق هذا الهدف انتدب «عثمان» لهذه المهمة أربعة من خيرة الصحابة، وثقات الحفاظ وهم: «زيد بن ثابت» و«عبدالله بن الزبير» و«سعيد بن العاص» و«عبد الرحمن بن الحارث بن هشام». والثلاثة الأخيرون من قريش. وأرسل «عثمان» إلى أم المؤمنين «حفصة» فبعثت إليه بالصحف.

وحدد «عثمان» مع اللجنة، باستشارة الصحابة دستور العمل. ويتلخص في الآتي:

1 ـ لا يكتب شيء إلا بعد التحقق أنه من القرآن.

2 ـ لا يكتب شيء إلا بعد العلم بأنه استقر في العرضة الأخيرة.

3 ـ لا يكتب شيء إلا بعد عرضه على جمع من الصحابة.

4 ـ اللفظ الذي تختلف فيه وجوه القراءات، فإن كان يمكن رسمه في الخط محتملاً لها كلها يكتب برسم واحد مثل قوله تعالى: ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾[2]. فإنها تصلح أن تقرأ بالقراءة الأخرى «فتثبتوا»، لأن الكتابة كانت خالية من النقط والشكل.

---

(1) اللآلئ الحسان في علوم القرآن. ص 57.

(2) الآية 6 من سورة الحجرات.

وإن كان لا يمكن رسمه في الخط محتملاً لها، يكتب في نسخة برسم يوافق بعض الوجوه، وفي نسخة أخرى برسم يوافق الوجه الآخر. كقوله تعالى: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ ﴾[1] فإنها تكتب في نسخة أخرى »وأوصى« بالهمز لأنهما قراءتان.

وسارت اللجنة في عملها بأمانة وهمة، ونسخت خمسة مصاحف، أو سبعة، ثم عرضت المصاحف على مهرة القراء. ولما اطمأن «عثمان» إليها وزعها على الأمصار الإسلامية في ذلك الوقت: (الكوفة، والبصرة، والشام، والمدينة، ومكة، والبحرين) واحتفظ «عثمان» بمصحف له، وهو المسمى «بالمصحف الإمام».

ولم تكد تصل تلك المصاحف العثمانية، إلى الأقطار الإسلامية، حتى قامت حركة كبرى لنسخ مصاحف على غرار «مصحف عثمان» وساعد على هذه الحركة تشوف كثير من المسلمين إلى نقل ما أجمعت عليه الأمة، وحاز ثقة المسلمين، إلى جانب توافر أدوات الكتابة، وسهولة الحصول عليها. والنهضة العلمية الشاملة التي غمرت أرجاء البلاد الإسلامية.

ولقد كان من نتيجة ذلك أن أحيط كتاب الله بسياج من الفولاذ والحديد، وأن حفظ الدين من العبث بأصول التشريع. وأن أخذ خلف هذه الأمة درساً قيماً عن سلفهم الصالح في ضرورة الاستبراء للدين. فأصبح الدين الإسلامي منيع الجانب محفوظاً من التغيير والتبديل إلى درجة تفاخر بها شعوب الأرض، وأديان الدنيا، مما لا يكاد يوجد مثله، ولا قريب منه في تاريخ أية شريعة من الشرائع السماوية والوضعية، منذ خلق الله السموات والأرض[2].

فأين هذه العناية والدقة من كتب «العهد القديم والجديد»؟ التي لا تعرف اللغة الأصلية التي كتبت بها، وإن عرفت، فلا يعرف اسم ولا شخصية من قام بترجمة

---

(1) الآية 132 من سورة البقرة.

(2) انظر: مناهل العرفان في علوم القرآن 1/ 327 بتصرف.

الكتب المتداولة، ولا تاريخ الترجمة، إلى جانب تعددها واختلافها، وتفرق أتباعها حولها. . . إلى غير ذلك مما تقدم ذكره في الفصل السابق.

يضاف إلى ذلك تلك الميزة التي امتاز بها القرآن الكريم عن غيره من الكتب: وهي تيسير حفظه في الصدور: حفظه العربي الفصيح، والأعجمي الألكن، من الرجال والنساء شباباً وشيباً.

وفي الوقت الذي لم يتجاوز فيه حفظة الكتب السابقة أصابع اليد الواحدة - حتى صاروا مضرب الأمثال بين أقوامهم - وصل فيه حملة كتاب الله عدداً خيالياً، فلا يخلو زمان ولا مكان به مسلمون إلا وفيهم من يحفظ القرآن عن ظهر قلب.

وقبل هذا وذاك تلك العناية الإلهية التي ضمنت سلامة هذا الكتاب من عبث العابثين. ودس الدساسين من الدجالين والوضاعين: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾[1].

---

(1) الآية 9 من سورة الحجر.

نتائج هذا الفصل

1 ـ الظروف العامة والخاصة التي ظهر فيها القرآن ناطقة بأنه من عند الله تعالى.

2 ـ أسلوب القرآن وما اشتمل عليه من أحكام وتشريعات، ومعارف وعلوم، شاهد عيان على عجز المخلوقات جميعاً عن معارضته.

3 ـ وضوح السند، واتصاله، وتواتره سمة من سمات القرآن الكريم. ميزته عن غيره من الكتب والمصادر الدينية.

4 ـ لا تعارض بين القرآن والحقائق العلمية الثابتة، فالنص القرآني بعيدٌ عن أي مرمى نقدي تثيره المعارف الحديثة. على حين أن نصوص العهدين القديم والجديد غير مقبولة بالمرة من وجهة النظر العلمية.

5 ـ القول بإعجاز القرآن «بالصرفة» دعوة ينقصها الدليل.

يقول «ابن تيمية»: ومن أضعف الأقوال قول من يقول: إن القرآن معجز بصرف الدواعي مع قيام الموجب لها. أو بسلب القدرة الجازمة، وهو أن الله صرف قلوب الأمم عن معارضته مع قيام المقتضى التام، أو سلبهم القدرة المعتادة في مثله سلباً عاماً...[1]

6 ـ لم يتحدث «الحليمي» عن موضوع «الإعجاز» ولكن بحثه الشامل في وجوه الإعجاز، ومقارنته بين القرآن وأقوال الكهنة وأسجاعهم... يدل دلالة قاطعة أنه يوافق الجمهور: بأن إعجاز القرآن بلوغه أعلى درجات الفصاحة والبيان.

---

(1) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لابن تيمية 4/ 75. مرجع سابق.